رجال غيروا وجه التاريخ الإنسانى

صفوة النابهين

كيف ترقى العقول إلى هذه الدرجة من السمو ؟

عبقرية الفطرة الإنسانية

• سلمان الفارسى •

obeikandl.com

obeikandl.com

كان الليل مظلما ورهيبا، وكانت العواصف تزأر وتصطخب وتوشك أن تقتلع صخور الصحراء، وكان الجوع المضنى قد بلغ مبلغا وعرا من رجل يواجه مخاطر حالكة فى طريقه إلى معسكر الهداية، باحثا عن حقيقة نور التوحيد، وهو مرشح للموت فى كل لحظة من ليل أو من نهار، كانت المهمة بالغة العسر، ولكن لم يخش عواقبها، وهو يلبى نداء العقل بأن هناك ما يجب أن يبحث عنه، وسوف يضئ الضمير الإنسانى بحقيقة التوحيد، ويكنس منه إلى الأبد وثنية القرون.

ولم تسجل الإنسانية من أوائلها إلى حواضرها، حالة فريدة للبحث عن الحقيقة ومهما كانت المشاق والتضحيات، إلا تلك الحالة المتفردة فى التاريخ الإنسانى لشاب قوى البنية من أهل النخبة ثراء ومكانة فى بلاد فارس، قطع عشرات الآلاف من الأميال، ومن حواف الرمال إلى شواطئ البحار، متنقلا بين السهول والوديان والجبال والشعاب الموحشة، قاصدا هدفا لا يحيد عنه، باحثا عن حقيقية الإيمان، وتمضى الأيام والأعوام، ومن يرى البذل والجهد الخارق الذى بذل، والهول الذى احتمل، يدرك عبقرية الفطرة الإنسانية للبحث عن نور التوحيد، ويدرك ما كان للصحابى الجليل سلمان الفارسى من سمو وتألق، وفطنة عقل.. لم يكن راضيا بالمظاهر التى حوله، وكان الرجل فى رحلته الطويلة الشاقة يهتدى بنور بصيرته..

﴿ أفلم يَسيرُوا فِي الأرْضِ فتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تعْمى الأَبْصارُ ولَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج :٤٦] .

وهكذا كانت رحلة رجل من أروع النماذج البشرية الفاضلة

وأبهاها . .

وهى حالة فريدة تجعلنا نتساءل: كيف ترتقى العقول إلى هذه الدرجة من السمو؟ وكيف تتحرك خلايا التفكير وبتلك اليقظة الخصبة للبحث عن الحقيقة المطلقة . . حقيقة التوحيد؟ وكيف يتحدى الإنسان الثوابت التى تحيط به منذ نشأته الأولى، ويكسر الحواجز والإغراءات المادية، و"تابوهات" العقيدة التى وجد عليها الأباء الأولون، من أجل مبدأ وهو حرية الحوار مع فطنة العقل لتقبل ما يمكن قبوله؟ هذه الحالة جسدها رجل كان فى صدارة الرجال النابهين فى دنيا العقيدة والإيمان، ويسجل التاريخ الإنسانى قصة عبقرية تبهر الأبصار، وهى فى نفس الوقت ترقية للعقول وتزكية للأفهام . .

وهى قصة تبدو من فرط إعجازها كالأساطير، قصة جهد خارق لتحرى الحقيقة من شاب ولد فى النعمة، وشب تحت خمائلها، وكان أوفر أقرانه شبابا وثراء، وعلى الرغم من حداثة السن كان يمتلك القدرة النفسية الهائلة التى جعلته يتسق مع الحق، فقد خرج من النعمة الوارفة التى كان يعيش فيها، مرتحلا بين الشعاب، مؤثرا الشظف والفاقة من أجل سمو الهدف الذى ملأ نفسه، وبقدر ما أراد، وبقدر ما بذل فى سبيل ذلك، حتى ولو تحول من سيد كان أكثر جاها ،إلى عبد فى سوق الرقيق !! وكان عليه فى كل الأحوال أن يتعلم لغة القوم ويجيدها خلال رحلة الآلاف من الأميال . .

وهذه حالة فريدة من آيات التضحية فى سبيل البحث عن حقيقة الإيمان . .

. . . . . .

وكان أمر هـذا الرجل عجبا وفـى ذلك الزمان ـ بداية القـرن السابع الميلادى تقـريبا ـ فى بلاد الترف والـبذخ والمدنية (بلاد فـارس) وكان قد اجتهد فى عبادة النار حتى صار خادما لها يوقدها، وهو منصب لا يتوفر لأحد إلا لمن يجتهـد فى المجوسية.. ولكن بفطنة عـقله وعظمة روحه، كان أقرب لصدق البصيرة، وكان أكثر استماعا لأحاديث رجال الكنيسة، وأعجبه أمرهم وصلاتهم، وتحول إلى المسيحية، ثم أصبح خادما للكنيسة بعد أن كان خادما للنار، ثم نهض فوق جمله وبدأ المسير إلى الشام رغبة فى التزود من تعاليم الدين الجـديد له.. وبدأت مرة أخرى رحلة البحث عن الصالحين الذين يتلقى على أيديهم روح النصرانية، فعاد إلى البصرة، ومنهـا إلى عابد زاهد فى "نـصيبيـن"، ثم لحق برجل آخر فـى أقصى الشمال فى "عمورية "من بلاد الروم، وحـين جاءت إليه نبوءة نبى بعث فى جزيرة العرب شد الرحال إليها حتى قدم إلى المدينة يتهيأ للقاء رسول الله ﷺ، وآمن به بعد طول انتظار وترقب..

أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولو الألباب.

وصحيح مـا أكثر ما توارثت الإنسـانية من آيات الزهد والتضـحية، ولكننا لا نعرف صورة من عبقرية الفطرة الإنسانية وفطنة المؤمن وإصراره وتفانيـه للقاء نور الحق، مثل تلـك الصورة لرجل من النابهـين ـ سلمان الفارسى رضي الله عنه والشاهد أن التاريخ الإنسانى بطوله وعرضه لم يسجل مثل تلك الرحلة بحثا عن الحقيقة، ونترك لحديث الصحابى الجليل ـ كما ورد فى (الطبقات الكبرى) عن ابن عباس رضي الله عنه يرسم صورة شديدة الإيجاز، ولكنها شديدة الوضوح لرحلة التحول الكبرى..

يقول رضي الله عنه كنت رجلا من أهل أصبهان، من قرية يقال لها "جى"

وكان أبى دهقان أرضه، وقد اجتهدت فى المجوسية حتى كنت قاطن النار التى نوقدها ولا نتركها تخبو، وكان لأبى ضيعة، أرسلنى إليها يوما، فخرجت فمررت بكنيسة للنصارى، فدخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فأعجبنى ما رأيت من صلاتهم، وسألت النصارى عن أصل دينهم، فقالوا : فى الشام، وقلت لأبى حين عدت ما حدث، فحاورنى وحاورته، ثم جعل فى رجلى حديدا وحبسنى، وأرسلت إلى النصارى أخبرهم أنى دخلت فى دينهم، وسألتهم أن يخبرونى قبل عودتهم إلى الشام، وقد فعلوا، فحطمت الحديد وخرجت وانطلقت معهم إلى الشام، وهناك سألت عن عالمهم فقيل لى: هو الأسقف صاحب الكنيسة، فأقمت معه أخدم وأصلى وأتعبد، ثم مات وجاءوا بآخر أكثر زهدا فى الدنيا، ودأبا على العبادة، فلما حضر قدره قلت له: إلى من توصى بى؟ قال: رجلا بالموصل، وأتيت صاحب الموصل، ثم حضرته الوفاة، فسألته إلى من توصى بى؟ فدلنى على عابد فى نصيبين، وأتيته وأقمت معه، فلما حضرته الوفاة، سألته، فأمرنى أن ألحق برجل فى عمورية من بلاد الروم، فرحلت إليه وأقمت معه، واصطنعت لمعاشى بقرات وغنيمات، ثم حضرته الوفاة فقلت له: إلى من توصى بى؟ فقال: يا بنى ما أعرف أحدا على مثل ما كنا عليه، ولكن قد أظلك زمان نبى يبعث بدين إبراهيم حنيفا، يهاجر إلى أرض ذات نخل، فإن استطعت أن تخلص إليه فافعل، وإن له آيات لا تخفى، فهو لا يأكل الصدقة، ويقبل الهدية، وأن بين كتفيه خاتم النبوة، إذا رأيته عرفته..

ومر بى ركب ذات يوم، وعلمت أنهم من جزيرة العرب، فقلت لهم: أعطيكم بقراتى هذه وغنمى ،على أن تحملونى معكم إلى أرضكم،

واصطحبونى معهم، وباعونى إلى رجل من اليهود، وأقمت عنده حتى ابتاعنى منه رجل من يهود بنى قريظة، وخرج بى حتى قدمت المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها حتى أيقنت أنها البلد التى وصفت لى، وأقمت معه أعمل له فى نخله ،حتى بعث الله رسوله ﷺ، وحتى قدم المدينة ونزل فى بنى عمرو بن عوف..

....

وهذه لمحات ـ وبإيجاز شديد ـ عن رحلته للبحث عن الحقيقة، وحين اهتدى إليها أخيرا، وأسلم، وحرر الله رقبته من الرق، كان أحد فرسان الإسلام، واسع الذكاء، متنوع الخبرة، والتى كان لها دور مشهود فى السنة الخامسة للهجرة، حين فوجئ المسلمون بجيش قريش ـ أربعة وعشرون ألف مقاتل ـ يقترب من المدينة ليطوقها، وينهى مسيرة الدين الجديد، فتقدم "سلمان الفارسى "إلى هضبة عالية، وألقى نظرة فاحصة على المدينة المحصنة بالجبال والصخور المحيطة بها، ما عدا فجوة واسعة يمكن أن يقتحم منها الجيش، فاقترح على النبى ﷺ حفر خندق يغطى جميع المنطقة المكشوفة حول المدينة، وهو اقتراح عسكرى لم يعهده العرب من قبل، وكانت المفاجأة قاسية على جيش قريش، حتى أرسل الله ذات ليلة ،ريح عاتية بددت شملهم، ووقف الأنصار يقولون: "سلمان منا "..ووقف المهاجرون يقولون: "بل سلمان منا "..وناداهم الرسول الكريم قائلا: "سلمان منا آل البيت "..

هو صاحب المزايا التى جعلت منزلته من رسول الله ﷺ كمنزلة آل البيت..

....

وعاش الصحابى الجليل سنوات الفتح الإسلامى بعد رحيل الرسول علية الصلاة والسلام، حتى لقى ربه فى خلافة عثمان بن عفان، وكانت حياته تسجيلا لمسيرة الفرسان والأبرار المتقين، وفى وقار مهيب، وتواضع جليل فى مثل هدوء البحر وقوته، ولم يتخل عنه الزهد، وظل يأكل من عمل الخوص، وليس له إلا عباءة تنافس ثوبه القديم، وهو أمير على "المدائن"، حتى ظن رجل قادم من الشام ومعه حمل تبن وتمر، أنه رجل من العامة، فطلب منه أن يحمل عنه، وفى قرارة نفسه أن يعطيه شيئا نظير عمله، وحمل سلمان الفارسى عن الرجل، ومضيا معا، وإذا هما فى الطريق سارع جماعة من الناس قائلين: "عنك أيها الأمير"، فعلم الشامى أنه أمير المدائن، فسقط فى يده، واقترب ينتزع الحمل، ولكن الصحابى الجليل هز رأسه رافضا وهو يقول: "لا، حتى أبلغك منزلك"..

وهذه لمحات من العظمة الباهرة لأولئك الرجال من أصحاب الرسول الكريم ﷺ..